# الفصل السابع

# انتصار الحق

وفي حوالي 160 للميلاد، وفي مدينة قرطاجة، ولد طفل لقائد مئة كان يعمل في خدمة الحاكم الروماني. وقد دعي هذا الطفل كونتوس سبتيميوس فلورنس ترتوليانــوس (Quintus Septimius Floens Tertullianus). ولــم يكن أبــواه يــدركان أن ولدهما هذا ســيصبح شــخصية رفيعة المقام والنفوذ في أبناء جيله بشــمال أفريقيا. لقد حظي ترتوليانوس بتعليم ممتاز، وتخصص بعلم الفلســفة والقانون. انغمس في شــبابه انغماســاً متهوراً بالرذيلــة المفرطــة التي كان يمارســها المجتمــع الوثني. كذلــك كانت تمارس الطقــوس الدينية الوثنية، ولكنه لم يفكــر كثيراً في معاني هذه الطقوس أو في مغزاها.

ولما بلغ الخامســة والثلاثين من عمره، قادته الأحداث إلى أزمة شخصية. كانت الســلطات الرومانية، ولفترة من الوقــت، تراقب عن كثب، نمو الجماعة المســيحية في قرطاجة وتطوره، بريبة وشك متزايدين. فلم يكن المسيحيون يشــاركون فــي التقدمات العامــة، ولا كانــوا يحلفون بالعظمة الســامية للإمبراطــور. فجــأة، ألقي القبــض على عدد مــن هؤلاء المســيحيين، وأمروا بأن يخضعــوا. وقد تأثر ترتوليانوس جداً من الشــجاعة الخارقــة التي أبداها المســيحيون فــي مواجهة الآلام القاســية التــي كانت تصدرها الســلطات الوثنية بحقهم. كان يعرف هؤلاء الرجال والنســاء المســيحيين جيداً، ويدرك تماماً أنهم أبرياء من أي فعل سيء. كان المسيحيون قوماً شرفاء أفضل كثيراً في الواقع من الوثنيين الذين كانوا يســيئون إليهم. وها هو الآن ، يشاهد بأم عينيه كيف يرفض هؤلاء المسيحيون أن يتنكروا لمعتقداتهم وإيمانهم، بينما يواجهون الموت الجسدي بثقة وشجاعة باسلة، مؤمنين بأنهم سيقومون من المــوت ثانية. هذا الإيمــان الواثق لم يجده ترتوليانوس في وثنيته الســطحية المبادئ، كان عند المســيحيين. وبكل وضوح فرح مــن نوع آخر وأعمق من ذلك

الذي كان ينشده الناس في التسلية اللا أخلاقية في قرطاجة. كانت وجوه المسيحيين تشرق إشراقةً نبيلةً هادئةً، وتسمو بهم فوق مستوى الرعاع، وفوق مستوى معذبيهم الرومان. وعندما كان ترتوليانوس يتأمل هذه الأمور ومضامينها، كان يزداد اقتناعاً، بأن هذه الحفنة من الرجال والنساء، كان لابد من أنهم يملكون شيئاً جديداً لا يقدر بثمن. فإذا كان درب المسيح هو الحق، فليس أمامه إذاً، سوى طريق واحد يمكنه السلوك فيه.

لم يكن ترتوليانوس ليقبل بأنصاف الحلول، وقد تكشفت هذه الصفة فيه بعدما اعتنق المسيحية، حيث كان اندفاعه حماسياً متّقداً، وإيمانه حاداً، كما كانت مواصفاته عادة. لقد غيره إيمانه الجديد بشكل جذري.

فحياته التي كانت بلا أهداف تُذكر، أخذت اتجاهاً ثابتاً وراسخاً، وشخصيته التي كانت متقلقلة صارت ثابتة، وأفكاره التي كانت متقلبة أصبحت مستقرة على المبدأ الذي عرفه أنه مبدأ قويم وحق. وشعر كأنه إنسان جديد، ورجل كامل، وكان شعوره صادقاً. وفي ما بعد، كتب يقول: «يُصنع المسيحيون ولا يولدون هكذا.»[41] وحقاً كان هذا اختباره الشخصي. هذا، وإن مخيلته الخصبة كانت تشده باستمرار إلى طريق المسيح. أخيراً وجد السبب الذي من أجله كانت نفسه الحيوية والحساسة تصرخ باستمرار: إنه الهدف الذي يستحق أن تُكرّس له الحياة والطاقات كلها. لقد وضع يده على المحراث، ومنذ الآن فصاعداً، لن ينظر ترتوليانوس إلى الوراء أبداً.

إن كانت الرسالة المسيحية هي التي صنعت الرجل، يبقى أن الرجل كان أيضاً نافعاً للقضية التي تبناها. ولم تمض إلا فترة وجيزة على اهتداء ترتوليانوس إلى طريق الحق، حتى باشر التبشير بالإيمان وتعليمه في قرطاجة، وكانت دعوته هذه ناجحة، بحيث أنه لم يعد لديه الوقت لممارسة البلاغة والفصاحة في مهنة المحاماة. فقد خصص وقته الكامل لخدمة الإنجيل، متكلاً على الله بكل بساطة لسد كل احتياجاته. بدأ ترتوليانوس يكتب عن الحياة الجديدة التي كان الله يكشفها له، ومن هذه البداية أظهر ترتوليانوس حبه لوطنه أفريقيا الشمالية، وبالخص لقرطاجة وطنه الأم.

Apologeticus 18 -41



وككاتب مسيحي مؤمن، يقف ترتوليانوس وحيداً تقريباً بين بني جيله. لقد ضاعت بعض كتاباته، وخصوصاً كتاباته الأولى، وبعض الكتابات باللغة اليونانية. أمّا ما تبقى له من كتابات، فهو كثير نسبياً، على الرغم من أن معظمها قصير وموجز. كانت هذه الكتابات عملية موضوعية، تعالج التساؤلات الملحة التي كانت تواجه المسيحيين في تلك الحقبة من الزمن، وكانت تشمل عدداً كبيراً من المواضيع. وهذه الكتابات تعطي كمية وافرة من المعلومات القيمة عن المجتمع الوثني والمسيحي في أفريقيا الشمالية إبان الفترة الأخيرة من القرن الثاني للميلاد.

كانت باكورة أعماله الرئيسة بل أعظمها، كتاب علم الدفاع عن المسيحية أبولوجتيكوس أو أبولوجي (Apologie). وقد كتب هذا الكتاب في نحو سنة 198 ميلادية، خلال الحكم الاستبدادي للإمبراطور المتوحش المدعو سبتيميوس سفيروس. إن هذا الكتاب هو تقديم ممتاز للإيمان المسيحي، لم يكن معالجة أكاديمية موجهة إلى إمبراطور مثقف، ذي ذوق فلسفي أو أدبي رفيع، بل كان تفنيداً عنيفاً، كتب إبان فترة الاضطهاد، لحكام رفضوا أن يصغوا، ولو إلى كلمة تقال في الدفاع عن المسيحية، وحكموا على المتهمين لمجرد اعترافهم بأنهم مارسوا ديناً غير مرخص به وهم يرفضون تركه. إن العنوان أبولوجتيكوس لم يكن يعني «اعتذاراً» أو «أسفاً» أو تبرئة من إثم مرتكب، كما تفيد هذه الكلمة الفرنسية بمعناها الحديث، بل يمثل على نقيض ذلك، إثباتاً منطقياً لوجهة نظر معينة، مقروناً ببرهان منطقي لصحتها وشرعيتها، وبينات مقنعة لمقبوليتها.

يبدأ ترتوليانوس دفاعه بإظهار بطلان عملية إلقاء القبض على المسيحيين وكأنهم مجرمون، وقد كان القضاة يعذّبونهم، لا ليعترفوا بجرائم خفية غامضة ارتكبوها، بل لإجبارهم على التنكر لإيمان نزيه. قال ترتوليانوس: «أمّا الآثمون الآخرون، فإنهم يُعَذّبون من أجل حملهم على الاعتراف. فلماذا يجري تعذيبنا نحن، فقط لننكر ما نعلنه بملء إرادتنا؟»[42] ثم يتساءل عن السبب وراء عداء الناس المتحمس والموتور ضد المسيحية والمسيحيين. إن التحامل

Apologeticus 2 -42

العالمي الشامل ضدنا هو في الواقع غير منطقي ولا أساس له. إن الأشخاص الذين نعيش بين ظهرانيهم يعلمون هم أنفسهم أن المسيحيين هم أفضل ما يمكن أن يقابلوا من رجال ونساء، ومع ذلك يحتقروننا. يقولون: «إن الإنسان كابوس سيوس هو رجل طيب لكنه مسيحي.» ونسمع أيضاً: «أنا اندهش لأن هذا الرجل الفطن المدعو لوكيوس تيتيوس قد اعتنق المسيحية.»[43] ثم تحدّاهم ترتوليانوس مستفسراً لماذا الأزواج والآباء والسادة يفضلون أن يبقى أبنائهم وزوجاتهم وخدمهم الوثنيون مخادعين ومتمردين بدل أن يصبحوا مسيحيين صادقين ومحترمين. هل من المعقول أنهم يفضلون العيش مع زوجة وثنية محتالة أو ابن أو خادم مخادع وثني، بدلاً من العيش مع شخص مسيحي شريف؟

لماذا يكون المسيحيون مكروهين هكذا؟ «فإذا ارتفعت نسبة المياه في نهر التيبر إلى مستوى ضفافه، وإذا فشلت مياه نهر النيل في الوصول إلى الحقول، وإذا لم تهطل الأمطار، وإذا حدثت هزة أرضية، وإذا حدثت مجاعة أو جاء وباء، فإن الصرخة الفورية تقول: «خذوا المسيحيين إلى ميدان الأسود.»[44] لماذا نلام نحن المسيحيين بسبب أمور عامة تحصل لجميع الناس؟ هذا بالطبع ليس عدلاً، وهو مناف لأبسط الأعراف والتقاليد الرومانية. كان ترتوليانوس يعرف ما يقول. «إنه يكتب كمحام مشدداً في مرافعته على لا شرعية الاضطهاد الممارس ضد المسيحيين، وعلى أن القوانين المنفذة ضدهم هي إنكار لحقوق الإنسان.»[45] فصرخ حقاً: «إن من الحقوق الأساسية لكل إنسان، ومن الامتيازات التي منحتها له الطبيعة، حقه في العبادة بموجب قناعاته.»[46] فلا يجوز للمواطن الصالح أن يعاني الإجحاف والتحامل بسبب ما يدين له؛ فعلى القانون أن يكبح جماح السلوك السيء، لا أن يمنع المعتقدات النزيهة والصادقة.

وقد تعلم ترتوليانوس من خلفيته القانونية أن يتحقق من البينات

43- Apologeticus 3
44- Apologeticus 40
45- Bettenson, ECF p. 15
46- Ad Scapulam 2



والحجج، ومكنته من استعمالها على أحسن وجه. وقد أضفى تكوينه البلاغي وفصاحته المرتبطة ارتباطاً وثيقاً بمواهبه الفطرية الأصلية، قوة وطاقة نافذة على تعبيره. «كان أسلوبه الأدبي ينسجم مع أفكاره. وكان هذا الأسلوب حيوياً توكيدياً فصيحاً. قاده إيجازه وعدم ترابط أفكاره إلى شيء من الغموض أحياناً. وكانت المفردات اللغوية التي يستعملها مذهلة في غناها ومأخوذة من مصادر مختلفة. لا يهمه إن كان المصطلح كثير التقنية أو قديماً مهجوراً، أو إن كان تعبيراً شائعاً كثير الابتذال إقليمي الاستعمال، إذا كانت هذه المصطلحات أو التعابير تدل على المعنى الذي يقصده. فإذا وجد ترتوليانوس أنه ليس هناك كلمة لاتينية جاهزة أو قادرة على استيفاء المعنى المطلوب، فهو يحاول استعمال كلمة يونانية، وإن لم يجد ما يفي بالغرض، كان يبتكر كلمة مناسبة. يحتوي أسلوبه على عناصر السيل جميعها من مواد مخلوطة وسرعة وتوجيه. فالخشب، والحجارة، والأتربة، وأوراق الشجر، والزهور، والنفايات تجرف جميعها معاً ثم تقذف لفتح سبيل مسدود أو لقهر خصم.»[47] وتُظهر كتاباته بوضوح مقدار حماسته، وهو ينجرف في عدّة أحيان وراء قوة اقتناعه، وشدة حجته، وبالأخص عند قراءة كتاباته الجدلية في تفنيد مبادئ الآخرين. «على المرء أن يتذكر دائماً أنه يصغي إلى مرافعة خاصة، أعدها محام شديد التمسك بدفاعه، وليس إلى شهادة يدلي بها شاهد محلّف أو حُكمٍ أصدره قاضي بعد أخذ جميع الآراء بعين الاعتبار.»[48]

ولكن، ففي كل هذه الأمور، سواء بوعي أم لا، كان يستنبط لغة جديدة، أو على الأقل يصوغ لغة قديمة في قالب جديد. لقد صنع من اللغة اللاتينية آلية قادرة على حمل عظمة وقوة أعمق رسالة قد يسمعها الإنسان. لقد بدأ الأدب اللاتيني المسيحي فعلاً مع ترتوليانوس. كان عنده أفكار لم تظهر في هذه اللغة من قبل، وكان مقصده الأوحد هو التعبير عنها بفعالية. فترتوليانوس هو أول من ابتكر عبارة «الثالوث الأقدس» ليصف من خلالها طبيعة الله، ويُقدّرُ ما ابتكر من كلمات جديدة ب 982 كلمة تقريباً.

47- Plummer pp. 114 _ 115
48- Plummer p. 115

يرى المؤرخ الفرنسي العظيم جوليان (Julien) في ترتوليانوس أنه المزاج الأمازيغي النشيط المتقد بشرارة الحق المسيحي والمشتعل بهمة راسخة لا تقاوم. كان ترتوليانوس من «المهتدين البرابرة. ولكنه استبقى تحت الغلاف المسيحي على كل حماسة البرابرة وعنادهم وحدة مزاجهم.»[49] «يندب» ترتوليانوس أحياناً اتقاد طباعه وحدّته. ولكنه استمر، مع ذلك، مندفعاً إلى الأمام بنفاذ صبر، واثقاً في نفسه، مستخدماً كلماته كسلاح حربي، مناضلاً ضد مناوئيه بلا هوادة ولا لين، منطلقاً وراءهم يقذفهم بكل أنواع أسلحته الجدلية المتوافرة ليقهرهم ويخضعهم لطاعته. وليس من المستغرب أن تتمكن قلّة قليلة منهم فقط، من مناقشته: هذا، وإن مواهبه الفذة، لم تبق في الميدان مكاناً لأحد سواه. إن ترتوليانوس كاتب يستحيل عليك أن توافقه دائماً، وهو يترك عندنا أحياناً آثاراً موجعة، ولكن مع كل نقاط ضعفه، فهو رجل يمتلك عبقرية فذة عظيمة، وتعتبر شخصيته أكثر الشخصيات فتنةً وسحراً في تاريخ الكنيسة المسيحية.

كان لترتوليانوس قلب مبشر، وقد خصص كتاباته قبل كل شيء، ليربح الوثنيين واليهود ويهديهم إلى الإيمان بالرب يسوع. إنه يُقدّم كل الأسباب الموجبة للإيمان، وكل الإجابات المطلوبة للمعترضين. وعندما يدير أفكاره نحو الجماعة المسيحية نفسها، تكون رغبته العظمى في أن يُمكّن العالم الوثني من النظر إلى هناك لرؤية يسوع. يجب أن تنسجم حياة المسيحيين مع ما يعلنون من تعاليم الإنجيل. وهو يتساءل ما جدوى الكنيسة المسيحية إذا كانت لا تستحق احترام الذين هم خارجها؟ فماذا يمكنها أن تحقق إذا لم تُظهر قداسة المسيح؟ وكيف يمكن للوثنيين أن ينجذبوا إلى المخلّص إذا رأوا أتباعه في حالة شر وخطية هي أسوأ من تلك التي يتخبطون هم فيها؟ لقد تمنى ترتوليانوس على الكنيسة أن تكون الشاهد المخلص للعالم. فعندما كان يتحدث إلى شعب قرطاجة، كان هاجسه أن يتمكن من الإشارة إلى التحول الذي يستطيع الرب عمله في الرجل والمرأة. ولكن إن لم يكن هناك أية علامة من علامات التحول، لابد عند ذاك من أن يسقط وعظ الإنجيل

49- اقتبسها Guernier p. 185



على آذان صماء. تحدّى ترتوليانوس منتقديه في أن يجدوا ولو مسيحياً واحداً متهما بالتجديف، أو فساد، أو بقتل، أو بنشل، أو بسرقة ملابس المستحمين. أما إذا وجدوا مثل هذا الشخص، فسيجدون أيضاً أنه فصل من شركة الكنيسة. فمثل هذا التصريح كان يحتاج إلى أن تكون الجماعة المسيحية مستحقة للصورة النقية. ولو كانت هناك خطيئة في الكنيسة؛ تصدّعت الأرض من تحت قدمي ترتوليانوس، وتحت أقدام كل أولئك الذين ينشدون ربح الآخرين للإيمان بالرب يسوع.

طالب ترتوليانوس زملاءه المسيحيين بأن يتجنبوا كل مظاهر التسوية مع الفئات السياسية والفعاليات العالمية. قال إن إمبراطوريات العالم تعلو وتهوي، أما الكنيسة فأبدية. إنها مملكة روحية وليست مملكة أرضية أو مادية، ويجب أن تبقى الكنيسة حرة لتخدم، ولتوفر الاحتياجات الروحية لجميع الناس أياً كانوا.

وقد تبتهج الكنيسة إذا نظرت إليها السلطات الرومانية نظرة استحسان. ولكن إذا احتقرتها تلك السلطات وكرهتها، فعلى الكنيسة أن تثبت وتتحمل. ولكن لا يجوز للكنيسة أن تُسخّر لخدمة قضايا السلطة مهما كانت الظروف والأسباب: عليها ألا تكون أداة بيد الحكام في الإمبراطورية. إن المسيحي مواطن صالح وشريف، ولكن آماله لا تتأسس على أية جمهورية أو مملكة بشرية. فهو تابع قبل كل شيء لأولئك الناس المدعوين «كنيسة الله»، وعاهله هو ملك الملوك ورب الأرباب. فهناك يكمن ولاءه وإخلاصه. سأل ترتوليانوس: «أفهل هناك أمة، داخل حدود جغرافية معينة، تفوقنا عدداً؟ فنحن أمة بلا حدود، بل حدودنا العالم بأسره.»[50]

إن إخلاص ترتوليانوس لإيمانه، كحماسته له، لم يكونا قط موضوع تساؤل. فهو واثق من موقفه، وكل وجهات النظر الأخرى، ليست سوى رمال متحركة. فماذا بإمكان الإنسان غير المخلَّص أن يعرف عن الحق؟ وماذا بمقدور رجل عالمي أن يعرف عن القداسة؟ وكيف يمكن لعابد الأصنام أن يفهم تعاليم الكتاب المقدس أو ينتقدها؟ إن هذه الأمور، كما قال الرسول بولس،

50- Apologeticus 37

هي مدركة على أساس إعلان من روح الله. «ولكن الإنسان الطبيعي لا يقبل ما لروح الله لأنه عنده جهالة....... وأما الروحي فيحكم في كل شيء.»[51]

رأى ترتوليانوس أن المسيحي الذي يتنكر لإيمانه هو جبان وخائن، ولا عذر له. فإن مثل هذا الشخص قد كذب وجدف على الله لكي ينجو بنفسه، وإذا ما عاد هذا الإنسان إلى الكنيسة، فعليها ألا تقبله وكأن شيئاً لم يكن: هذا هو السبيل لكي تملأ صفوفها بالضالين وبالمرائين. قال ترتوليانوس إنه لا يمكن لكنيسة المسيح أن تصفح من موقع ضعف عن أولئك الذين يخونون سيدها خيانة تامة أو يخطئون إليه عمداً. لذا يجب إبعاد المؤمن عن الكنيسة إذا ما عاد إلى عبادة الأصنام، أو إلى الأعمال الوثنية الفاجرة. ألا يستحق الرب يسوع أجل الخدمات؟ فعلى المسيحي أن ينكر ذاته ويحمل صليبه ويتبع المسيح، وأقل من التكريس الكامل يعتبر إهانة لله ولشعبه. يجب التعامل مع الخطيئة المرتكبة بجدية وحزم، تماماً كما كان يفعل رسل المسيح[52].

كان سلطان إخراج الشياطين أمراً مألوفاً في الكنائس في عهد ترتوليانوس. وقد أشار هذا الأخير إلى طرد الأرواح الشريرة، ليس وكأنها ظاهرة نادرة يجب التأكد منها بجهد وبشهادة الآخرين لها، ولكن باعتبارها حقيقة لا تنكر، معروفة لدى الجميع، ويعتمد عليها بثقة للتحقق من أن رسالته كانت رسالة حق. إنه لا يسأل خصومه الوثنين أن يؤمنوا بأن مثل هذه القوى لاتزال موجودة، ولكنه يطالبهم بقبول رسالة الإنجيل التي تأتي هذه القوى لتبرهن أصالتها.

كان ترتوليانوس يعرف الكتاب المقدس حق المعرفة، وكان يقتبس باستمرار من الأناجيل ومن الرسائل، كما من العهد القديم أيضاً. وكان يسير بكل وضوح على خط الإيمان الرسولي النقي، ولا نجد في كتاباته إلا القليل من الأفكار الدينية الدخيلة على المسيحية، والتي تسببت بعد وقت قصير بتعقيد حياة الكنائس. وقد احتج ضد الممارسة الجديدة الخاصة بمعمودية الأطفال. ولم يعط مريم أم المسيح في الجسد مقاماً أعلى من مقام الناس

51- (1 كورنثوس 2: 14 و15)
52- (1 كورنثوس 5: 9 - 11)



الآخرين ولم يصل لها. ورفض أيضاً المبدأ القائل بتبتل قادة الكنيسة، على الرغم من أنه وجد له قيمة فعلية بالنسبة إلى أي مسيحي يرغب في ذلك طوعاً. وآمن إيماناً راسخاً بكهنوت المسيحيين المؤمنين جميعهم، وغالباً ما كان يذكر سامعيه، بأنه حيثما اجتمع اثنان أو ثلاثة باسم المسيح، فهناك يكون المسيح في وسطهم. وقد شدد بحزم على أن الكنيسة الحق لا تقاد إلا بالروح القدس، وليس من طريق المؤتمرات البشرية. كان ترتوليانوس يتوقع واثقاً أن يرى من خلال حياته على الأرض نهاية العالم وعودة المسيح وبداية الملك الألفي.

ثم بعد مدة، جرى على الأرجح تعيين ترتوليانوس كشيخ من شيوخ كنيسة قرطاجة، لكنه على غرار إقلمندوس الاسكندراني (Clément d'Alexandrie) وأوريجانوس (Origène)، لم يرق إلى درجة كنسية أعلى. ويبدو أنه كانت لديه تحفظات جدية بالنسبة إلى هذا النوع من البنى الهرمية. امرأة ترتوليانوس كانت مسيحية، وقد أهداها بحثين كتبهما عن الزواج المسيحي، وأظهر من خلالهما تفانيه لزوجته، داعياً إياها برقة وتحبب «يا أحب رفاقي في خدمة الرب»[53]. وكمعظم الرجال في عصره، كان من المفترض أن تكون ملابس ترتوليانوس مشتملة على الرداء الأبيض بأكمامه القصيرة، وهو عبارة عن قميص طويل يصل إلى الركبتين، مصنوع من الكتان، ومشدود حول الخصر بحزام. إلا أن ترتوليانوس أظهر استقلاليته عن عادات الإمبراطورية الرومانية بالاستغناء عن التوجا، اللباس الروماني الفضفاض والمتدلي، مفضلاً عليه الشملة الإغريقية، (وهي نوع من اللباس الذي يطرحونه على الكتف الأيسر) أو «بليوم» الفيلسوف (وهو رداء رجالي مستطيل). وقد ظهر تفضيله لهذا اللباس في كتاب يبحث في موضوع الملابس، وحذا حذوه في هذا الزي كثيرون. وعليه، فقد أصبح لباس التوجا يختفي من الكنائس. أما حذاؤه، فكان الصندل الذي كان يربط برباط يلتف حول الكاحل. وكان يقص شعره قصيراً، ولربما كانت له لحية قصيرة، وهي التي كانت وقتئذ تطابق الزي السائد منذ نهاية القرن الثاني. فقد أشار

53- Ad Uxorem 1:1

أحد الرجال المعاصرين لترتوليانوس، وهو أكبر منه سناً، ويدعى إقلمندوس الاسكندراني إلى اللحية داعياً إياها «زهرة الرجولة». ويقول إقلمندوس أيضاً» «إن اللحية هي الصفة المميزة التي منحها الله للرجال وللأسود»[54]. وكان حلق الذقن آنذاك يعتبر تخنثاً، وتحدياً لله الخالق.

كان ترتوليانوس في قرطاجة وقتما حكم على بربيتوا وزملائها بالإعدام عام 302 ميلادية. ويعتقد بعض الكتاب أنه هو الذي ألف قصة استشهادهم أو أعدها. وفي كل حال، كان ترتوليانوس نحو هذا الوقت قد انضم إلى فرقة من المسيحيين، كانت تعرف بالمونتانيين (Montanistes)، والتي يبدو أن بربيتوا ورفاقها كانوا ينتمون إليها. وفي مطلع القرن الثالث، كانت هذه الفرقة قد اكتسبت لنفسها بعض الشعبية في أوساط إفريقيا الشمالية. وكان أعضاؤها يتبعون تعاليم ومثال أحدهم ويدعى مونتانوس (Monta-nus)، الذي كان قد شرع بالكرازة نحو العام 170 م، وذلك في منطقة فريجية (تركيا الحديثة).

كان مونتانوس يعتقد أن جيله كان يقف على عتبة عصر جديد، عصر الروح القدس، الذي خلاله سيكون من نصيب أولاد الله جميعهم أن يحصلوا على رؤى وعلى إعلانات بحسب ما هو مكتوب: «يقول الله ويكون في الأيام الأخيرة إني أسكب من روحي على كل بشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم ويرى شبابكم رؤى ويحلم شيوخكم أحلاماً. وعلى عبيدي أيضاً وإمائي أسكب من روحي في تلك الأيام فيتنبأون»[55]. فالمسيحيون الذين التصقوا بمونتانوس شرعوا يرون ويسمعون مثل هذه الأمور. وقد صرح قائلاً: «إن الروح يحرك الذهن، كما أن الموسيقار يحرك أوتار القيثارة». وبهذه الطريقة يستطيع المؤمن أن يحصل على كلمات الله عينها، وأن ينقلها إلى الآخرين.

وقد أخذ المونتانيون مبادئ العهد الجديد على محمل الجد، وحاولوا أن يعيشوها مهما كلف الأمر. لم يتمكنوا، كما هي الحال بالنسبة إلى الكثيرين سواهم، من التوفيق بين الخدمة العسكرية وتعاليم يسوع: على

54- ANF Vol. II [Paedagogus 3:3]

55- (أعمال 2: 17و 18)



المسيحيين ألا ينخرطوا في الجيش. كما اعتبروا أن دراسة الأدب الوثني لا يليق بالمسيحي: إنها ستضله عن الطريق الصحيح، وتعثر الناس الذين يرون هذا القارئ ويقتدون به. كانوا قد بدأوا يجتمعون في بيوتهم للصلاة والصوم وقراءة الكتاب المقدس معاً؛ وكانوا يشجعون بعضهم بعضاً على الارتقاء في حياتهم إلى أعلى المبادئ الأخلاقية الروحية. كانوا يتطلعون قدماً إلى مكافأة في السماء وإلى حياة أفضل. فكان إيمانهم الراسخ بأن المسيح سوف يعود سريعاً، وستراه كل عين ويعترف كل لسان بأنه رب[56]. ومن ثم سوف يجمع شعبه ويأخذهم إليه ليسكنوا معه في مجده إلى الأبد. ولا يجوز للمسيحي أن تشده أمور هذه الحياة الفانية؛ وإذا ما دعي ليتألم، أو حتى يستشهد من أجل المسيح، عليه عند ذاك أن يفرح ويبتهج لكون الله قد ميزه بهذا الشرف العظيم. انجذب ترتوليانوس إلى هذه الفرقة، وبخاصة على أساس ما لمسه فيهم من رغبة صادقة في إطاعة كلمة الله. كان إخلاصهم القلبي يتلاءم ويتجانس مع إخلاصه هو.

لم يكن المونتانيون راضين عن بعض التوجهات والنزاعات التي ظهرت في كنائس إفريقيا الشمالية، وكذلك في آسيا الصغرى. ولقد تمنوا أن يروا قداسة أكثر وضوحاً في الجماعة المسيحية. وقالوا إن هناك العديد من المسيحيين الذين لا يعيشون طائعين إطاعة صادقة للمسيح. فبعضهم، كما يبدو، كان يميل إلى التساهل في الانغماس في نشاطات سيئة السمعة أو إلى المشاركة بالأفعال القذرة الحقيرة التي يمارسها الوثنيون؛ فكان يجدف على اسم المسيح من جراء ما يمارسه هؤلاء المدعوون مسيحيين. واعتبروا أنه يجب طرد مثل هؤلاء من الكنائس. كان من الضروري في نظرهم أن يعطى الذين من خارج – يهوداً كانوا أم وثنيين – فرصة لسماع بشارة الإنجيل. لكن يجب عدم تسميتهم مسيحيين حتى يصبحوا هكذا فعلاً، أي حتى يتنكروا لذواتهم، ويحملوا صليبهم ويتبعوا المسيح.

اغتاظ المونتانيون عند تنامي البنية السلطوية للكنيسة، والتي قيدت الكنائس بعضها ببعضها الآخر، وأعاقت حريتهم في الاجتماعات. إلى هذا،

56- (فيليبي 2: 11)

ظهرت نزعة متنامية لدى القادة في المدن الكبيرة للتسلط على القطيع حتى أنهم أصدروا قرارات توقعوا من سائر الكنائس الأخرى أن تذعن لها. يجب احترام القادة، قال المونتانيون، ولكن هذا لا يعني بأي شكل من الأشكال أنهم معصومون عن الخطأ. كذلك عليهم هم أيضاً أن يخضعوا لكلمة الله. إن الوحدة في الكنائس، كما يصرح المونتانيون، يجب ألا تفرض بالقوة الجائرة. فالوحدة الحقيقية هي ثمرة التسامح والمحبة، ولا يمكن أن تتحقق إلا عندما يمتلئ الجميع بروح المسيح. يجب أن تكون وحدة الكنيسة وحدة روحية أكثر منها مؤسساتية، ويجب أن يكون هناك مكان في أروقتها للأفكار والآراء والاهتمامات المختلفة. إن المخلص نفسه هو رأس الكنيسة ويجب أن يكون روحه هو القائد؛ فليس هناك إنسان قادر على أن يأخذ مكان يسوع المسيح.

كذلك الاجتماعات في كنائس كثيرة، بدأت هي الأخرى تزداد شكلية، وقد حدت بالتالي من حرية الروح القدس في تحدثه المباشر إلى أعضاء الكنيسة. وأشار المونتانيون أيضاً، إلى أن النظار المعتمدين ليسوا وحدهم من يحصلون على التوجيه الإلهي، لأنه بإمكان كل مؤمن أن يصلي إلى الله ليعلم مشيئته، وبذلك يساهم في الحياة الكنسية للخير العام.

فإذا كانت طهارة هذه المجموعة من الناس المؤمنين، في أيام المسيحية الأولى، قد استحقت احترامنا وإعجابنا، فإن استعدادهم للاستشهاد يثير فينا إعجاباً تاماً. فهم لم يترددوا قط في بذل حياتهم، عندما البديل لاستشهادهم كان يعني إنكار مخلصهم. قد نعذرهم على تطرفهم في وضع مستويات الصواب والخطأ، وكذلك على قلة صبرهم على أولئك الذين كانوا يرغبون في سلوك سبيل أدنى من المستوى المطلوب، لأن المبادئ التي كانوا يؤيدونها لم تكن في غالبيتها سوى تعاليم يسوع ورسله. إن ما قدموه كان في معظمه نصائح وحض بغيرة على حب أعمق وتكريس أعظم.

إلا أن العديد من الكنائس في القرن الثاني، كانت تسير في اتجاه مختلف تماماً. فبعضها كان يميل إلى الفكرة القائلة أن التنبؤ قد توقف منذ عصر الرسل. وقيل أيضاً أنه لم يعد بإمكان المسيحيين الحصول على إعلانات



شخصية، وإن أي إنسان يدعي النبوة من الله لا يمكن أن يكون إلا من الدجالين. كان المونتانيون قلقين، ولكنهم، لم يرغبوا في الانفصال عن إخوتهم في المسيح. فعوضاً عن فتح باب الشقاق، تحملوا بصبر سوء الفهم والإجحاف، وعملوا ما بوسعهم للتأثير في الجماعة المسيحية من الداخل.

مع ذلك، فقد كان أناس ينتمون إلى الكنائس القديمة، الذين شعروا بالامتعاض من مواقف المونتانيين، وشكوا في روح الاستقلال عندهم، كما سخروا من الوحي الذي ادعوا حلوله عليهم. فتم رفع الشكاوى ضدهم على أعلى المستويات، وفي مقاطعة فريجية نفسها، موطنهم، قامت بعض الكنائس بإدانتهم. كما سافر أحد مناوئيهم المدعو براكسياس (Praxéas) إلى روما، ونجح في إقناع ناظر الكنيسة، بأن المونتانيين يعملون على إثارة الشقاق والخلاف، ويهددون وحدة الكنائس المسيحية في العالم بأسره. فكانت النتيجة حاسمة إذ أصدرت كنيسة روما الحرم الكنسي بحق المنشقين المونتانيين، واعتبر هذا الحرم شاملاً لكل الكنائس، وفي كل الأصقاع، التي تأتمر بأوامر كنيسة روما هذه المجموعة التي عرفت فيما بعد «بالكنيسة الكاثوليكية» أو الكنيسة العالمية. لم يكن هذا الرفض والإبعاد بسبب تعاليم زائفة صدرت عن المونتانيين، بل، وبكل بساطة، لكون هؤلاء عطلوا نظام الكنائس، ولرفضهم أيضاً القبول بالمقاييس التي حددها قادتهم المعتمدين.

لقد أثيرت فيما بعد شكوك بالغة الخطورة حول صوابية تعاليم براكسياس نفسه. إن آراءه في لاهوت المسيح وناسوته شردت من دون شك عن الحق الكتابي، بينما ظل المونتانيون مستقيمين في هذا المجال. إلا أن التوفيق أضحى مستحيلاً. وربما، لم يعد أمراً عجيباً أن يساء فهم المونتانيين جداً من مؤرخين كنسيين لاحقين من ذوي النزعة الكاثوليكية والأسقفية، الذين، خلال جيلهم الخاص، يتبنون الدعوة المسكونية لتوحيد الكنيسة عضوياً وظاهرياً بأي ثمن. وكثيراً ما كانوا يكتبون عن المونتانيين بكلمات من قبيل: «المتحمسون الصارمون» أو «أبطال في يوم الاضطهاد، متعصبون

في زمن السلم»[57]. ولكن هذا لم يكن كل ما في الأمر.

وبالتأكيد، فإن ما حدث لم يكن نهاية المونتانيين، إذ وجد هؤلاء في ترتوليانوس بطلهم الأعظم. فقد كتب هذا الأخير تفنيداً مسهباً ضمنه حججاً دامغة ضد براكسياس. وقد وضع ثقله خلف حركة المونتانيين التي أشار إليها في تفنيده بالعبارة «النبوة الجديدة». ولم يجعل ترتوليانوس المونتانية جديرة بالاحترام وحسب، بل اعتبرها قوة يجب تقديرها والاعتماد عليها في شمال إفريقيا. واستمر المونتانيون بالتعليم ومد يد العون بعضهم لبعض بقيادة الروح القدس، وبمباركة الله المدركة الظاهر»[58].

قضى ترتوليانوس طوال حياته في قرطاجة، على الرغم من أنه زار روما مرة واحدة على الأقل. ولربما خدم أيضاً في كنيستها كشيخ من شيوخها لفترة ما. وفي روما، أصبح ترتوليانوس ضليعاً في ترجمة لاتينية للكتاب المقدس، تختلف أحياناً وإلى حد بعيد عن تلك التي استعملها كبريانوس لاحقاً في قرطاجة. ولكن غطرسة قادة الكنيسة في روما وعداءهم المذهل للمونتانيين، تركا أثراً ثابتاً في ترتوليانوس مما ساعد، من دون شك، في جعله متعاطفاً معهم ومؤيداً لهم. كان متقد الذهن للغاية وحاراً في الروح جداً حتى إنه لم يكن من السهل عليه الخضوع لأوامر مصقولة صادرة عن أناس دونه شأناً. لم يكن ترتوليانوس يرغب في أن يكون السبب، أو أن يشجع على إحداث شرخ، وكذلك لم تكن الكنائس الأقدم عهداً ترغب في إبعاده عن شركتها. آمن ترتوليانوس، من كل قلبه، بمبادئ الإيمان المسيحي، واختلف مع زملائه المؤمنين، فقط في الاعتقاد أن مستواهم القداسي لايزال متدنياً إلى حد ما. لقد بقي من أعظم مناصري المسيحية الحق. كما كتب بعض أعظم مقالاته ضد «الغنوسطية» (Gnosticisme) وغيرها من الهرطقات والبدع، بعد التحاقه بالمونتانيين. ومن اللازم القول، إن فصاحته اللاذعة كانت أكثر إقناعاً حينما تنصب ضد جعالة العدو المشترك، أكثر

57- Foakes – Jackson p. 254

58- لقد حافظ مونتانيو آسـيا الصغرى على كنائسـهم المستقلة حتى فترة متقدمة من القرن السادس [Schaff HOTCC Vol.II p.421]



منها حينما تكون ضد قصور الكنيسة الكاثوليكية وعدم كفايتها، والتي كان قد تركه وقتذاك.

لقد اعتبر ترتوليانوس دائماً أن الوحدة المسيحية هي فضيلة عظيمة، ولكن لا يجوز أن نشتريها على حساب الحق. ويجب فحص الأفكار الجديدة، أضاف ترتوليانوس، بمقارنتها بكلمة الله؛ ويجب تشخيص الأخطاء في وقت مبكر، قبل أن تنتشر ويستفحل أمرها. قال إن الحق واحد بينما البدعة متشعبة متنوعة؛ والحق يعرف من موافقة الكنائس جميعها عليه، بينما البدعة هي محلية ومحصورة بفئة قليلة. الحق تبدى من أقوال الرسل بينما البدعة مظهر حديث. الحق يثبته الكتاب المقدس، بينما البدعة تنصب نفسها ضد الكتاب المقدس وفوقه[59].

وأخيراً، يظهر أن ترتوليانوس بدأ بنزعة من بعض أوهام التطرف التي ما إليها بعض من المونتانيين. أحياناً، يظهر أنصار مثل هذه الجماعات السائبة والمشحونة حيوية، رغبة مخيفة في قبول إعلانات «أنبيائهم» الذين ادعوا بأنهم ملهمون بالروح القدس، وذلك من دون أي تساؤل. وقد رأى ترتوليانوس بكل وضوح، أن الإيمان ممتاز ورائع، فقط إذا ما كان مبنياً على الحق. فالحرية الروحية يجب أن تمارس ببصيرة متأنية ومتعقلة. والحق الإلهي المعلن من الله والمنسجم مع الكتاب المقدس الموحى به، يجب قبوله. ولكن يجب عدم السماح للكنيسة بأن تساق وراء أفكار انفعالية ومتحمسة صادرة عن خيال أشخاص قد يكونون سليمي النية والقصد ولكنهم يقودون الكنيسة بالتالي، إلى الضياع والتشتت. قال الرسول يوحنا قبل عدة سنوات: «أيها الأحباء، لا تصدقوا كل روح بل امتحنوا الأرواح هل هي من الله لأن أنبياء كذبة كثيرين قد خرجوا إلى العالم»[60]. كما أن الرسول بولس قال، إن الروح القدس يعطي لبعض الناس القدرة على التنبؤ، أي أن يبلغوا رسالة الله، ولكنه أيضاً يعطي لآخرين القدرة على «تمييز الأرواح»، أي أن يعرفوا ما إذا كان الإعلان من الله أم من مصدر آخر[61]. وبعد بضع سنوات، انفصل

59- راجع De Praescriptione Haereticorum 32

60- (1 يوحنا 4: 1)

61- (1 كورنثوس 12: 10)

ترتوليانوس على ما يبدو عن المونتانيين جاراً معه عدداً من أقرب أصدقائه. فبالنسبة إليه، يبقى الحق هو الأهم من كل الأشياء.

ولم يكن لترتوليانوس مثيل في عصره سوى واحد، وهو أوريجانوس العظيم. وقد ولد أوريجانوس في الإسكندرية ولكنه انتقل في ما بعد إلى قيصرية على ساحل فلسطين. وما يدعو إلى الحيرة والعجب حقاً أن يكون كل منهما متشابهين في بعض الوجوه، ولكنهما لم يكونا متشابهين في دروب ومسالك أخرى. فكل منهما له موهبة التخيل، وهو بارع في التصوير المجازي، وكل منهما يستخدم هذه الموهبة في كتاباته المتدفقة المثمرة، مدافعاً عن الإيمان ضد الوثنية، واليهود والهراطقة. وكلاهما كانا يعيشان حياة نكران الذات الشديدة الصارمة، وكلاهما، بتعاليمهما وقدوتهما، ألهما جيلهما كيف يجب أن يكون التكريس المسيحي الحقيقي الأصيل. وكلاهما كانا على استعداد أن يعانيا خسارة كل ما في هذه الدنيا من أشياء، عوضاً عن المساومة على حق الإنجيل. ولكن، مع ذلك، نجد كيف أن كل واحد منهما أمضى الفترة الأخيرة من حياته في خلاف مع القسم الأكبر من الكنيسة المسيحية، وفي صراع مع كبار قادتها المتنفذين في روما.

على أن هذا التشابه بينهما يبقى سطحياً، إذا ما علمنا أن هناك اختلافاً جذرياً بينهما في الجوهر، والحقيقة، أن واحداً منهما قد أمضى نصف عمره في حيلة وثنية، بينما عرف الثاني منذ ولادته بركات البيت المسيحي المسالم والثابت الإيمان. وهذا ما يفسر الكثير مما سنأتي على ذكره الآن. ولاشك أن حماسة ترتوليانوس الصارمة كانت في طبعه وخلقه، ولكنها ازدادت حدة بفضل تجديده ورفضه الكامل لماضيه، بينما «عذوبة ونور» أوريجانوس المحبوب كانا ثمرة نموه الهادئ بصفاته المسيحية التي ترعرع عليها منذ نعومة أظفاره. وقد انعكست هذه الأشياء في أسلوب كتابة كل منهما: فالأول صارم في عقيدته من دون هوادة، أما الثاني، فيحب الخوض في المعاني الغامضة ومعروف بلطفه التأملي الدقيق. يتعامل الأول مع الأشياء بتوكيد صريح مباشر، بينما يتعامل الثاني بمثل نظرية عالية المقام. وبّخ ترتوليانوس اليأس الأدبي في هذا العالم توبيخاً صارماً وعنفه تعنيفاً شديداً، وسخر من



قنوط الناس الفكري، بينما قدم أوريجانوس تعاطفاً شديداً مع كليهما، وشعر في العمق مع أولئك الذين كانوا يتلمسون طريقهم بحثاً عن إدراك سرائر هذا الكون الفسيح. تعلم ترتوليانوس الفلسفة كوثني وازدرى بها للغاية: فالفلسفة ظهرت كمصدر لأكاذيب وهرطقات لا حصر لها. وتركت الناس في ظلمة كاملة لا يمكن أن تتلاشى إلا بفعل نور الإنجيل المعلن. أما أوريجانوس، فقد تعلمها وهو في أحضان المسيحية، وتعمق في مكنوناتها أكثر كثيراً من ترتوليانوس، فكان لها كل التقدير عنده، واعتبرها استعلاماً جزئياً وتمهيدياً قد لايزال يعمل لخدمة الحق.

على الرغم من أن كلاً من ترتوليانوس وأوريجانوس وجدا نفسيهما في نزاع مع المسيحيين الآخرين، إلا أن سبب هذا النزاع كان يختلف في كل حالة. فانفصال ترتوليانوس كان من عمله هو أما انفصال أوريجانوس فسببه أعدائه وخصومه. ومع أن أحداً في قرطاجة لم يدن ترتوليانوس،، فإنه تعمد ترك الكنيسة التي كان يخدم فيها، وعقد العزم على تفنيد أخطائها. أما أوريجانوس الذي حرم كنسياً في الإسكندرية وروما، فتحرك متوجهاً إلى الشرق، واستمتع هناك بأعظم قدر من الشركة الحميمة مع كنائس تلك المنطقة، من دون أن ينتقد أحداً. ولربما نستطيع أن نرى هنا، وبما سيلحق، كيف أن شخصية الإنسان تقرر إلى حد بعيد الخدمة التي يتولاها وآراءه ومبادئه الشخصية أيضاً.

يقول بعضهم أن ترتوليانوس بعد انحرافه بعيداً عن تيار المونتانيين، لم يلبث أن عاد إلى مجموعة الكنائس الكاثوليكية التي انتمت إليها غالبية مسيحيي شمال إفريقيا في ذلك الوقت. وهذا الرأي مشكوك فيه، ولكنه قد يبدو جذاباً لأولئك الذين يوقرون كلاً من الرجل ترتوليانوس والبنية الكاثوليكية. في الحقيقة، وبعد مرور قرنين من الزمن، بقي هناك مجموعة من المسيحيين يعرفون بالترتوليانيين، «أي أتباع ترتوليانوس» على الرغم من أن عددهم كان قليلاً، ولكن وجودهم، إن دل على شيء، فهو

يدل على أن ترتوليانوس بقي بعيداً إلى حد ما من الكنيسة التي انتقدها بشدة[62]. ومن جهة ثانية، وبعد مرور قرن على وفاته، فحتى كبريانوس، وهو أقوى وأخلص المدافعين عن الوحدة الكاثوليكية، قوم كتابات ترتوليانوس، وقدمها على سائر الكتب الأخرى، حتى أنه كان يخاطب أمين سره قائلاً: «جئني بالأستاذ، ناولني المعلم»، كلما شاء أن يتصفح مجلداً أو كتاباً ألفه ترتوليانوس. ويبدو أن ترتوليانوس اعتبر أن لا ضرورة لإجراء أي مصالحة رسمية مع الكنيسة الكاثوليكية، لأنه لم يدن رسمياً، ولا القادة حرموه كنسياً في كل من قرطاجة وروما. ونعلم أن ترتوليانوس قد اجتذبه كل من كان يشاركه إيمانه، إذ كان مستعداً أن يجتمع للعبادة مع أي جماعة تحب المسيح وتخدمه بإخلاص، وذلك بمعزل عن الكنيسة التي تنتمي إليها.

يخبرنا المترجم العظيم جيروم (Jérôme)، أن ترتوليانوس عاش عمراً طويلاً، ولم يعرف كيف أو متى توفي. ولكن، لابد من أن يكون تاريخ وفاته بين الأعوام 220 – 240 ميلادية. وهذا يظهر أنه كان في سن الستين على الأقل حين لبى نداء ربه وغادر هذا العالم.

تحدث ترتوليانوس إلى كل من الكنيسة النامية والعالم المراقب، معلناً المفارقة الشاسعة القائمة بينهما، تلك المفارقة التي كانت واضحة جلياً لكل من له عينان تريان: «حق العقيدة المسيحية، مقابل أكاذيب الوثنية؛ نقاوة الأخلاق المسيحية مقابل إباحية الوثنية؛ أخوية الشركة المسيحية مقابل أنانية الوثنية وقسوتها»[63]. لقد محور مواضيعه الأساسية حول ثلاثة: الحق، النقاوة، والأخوية. يجب إحياء ذكره بواسطة كلماته الخاصة هذه التي يعرض فيها إقراراً للحق، حق الله الذي لا يمكن ولا يجوز إخفاؤه[64].

«لا يطلبُ الحقُّ معروفاً
أو استحساناً لقضيته

62- يذكر أغسطينوس كيف أنه تمكن أخيراً بفضل جهوده، أن يصالح الترتوليانيين في قرطاجة مع الكنيسة الكاثوليكية، وذلك في القرن الرابع (De Haerisibus 6; Schaff HOTCC Vol.II p.421)

63- Lloyd p. 28

64- Apologeticus 1; راجع الترجمة في Lloyd p. 23



فهو يعلم أنه
غريبٌ في هذه الديار
وأنه بين الغرباء، من السهل أن
يجد لنفسه أعداء.
فولادته، وداره، ورجاؤه
هي في السماوات.
ولكن شيئاً واحداً يتمنّاه
الحقُّ بشدة،
ألاَّ تحصل إدانته
وهو غير معروف».

ترتوليانوس

# الفصل الثامن

# الكتابات الروحية

إن كبار المفكرين المســيحيين في القرون الأربعــة الأولى للميلاد اهتموا بتعريف عقائد الإيمان وانهمكوا في الدفاع عنها. فقد شــغلتهم الأســئلة التالية: هل كان المسيح إنساناً مثلنا؟ أو هل كان ملاكاً؟ أو أنه كان يختلف عنا في جملته – كأن يكون ليس بإنسان ولا بملاك؟ هل كان المسيح موجوداً منذ الأزل؟ أو هل وجد عندما حبلت به العذراء؟ هل جرب المســيح حقاً، كما نجرب نحن، حيث كان بإمكانه أن يخطئ؟ أو كان مستحيلاً عليه أن يخطئ، وبالتالي فإنه لم يتعرض للإغراءات الحقيقية؟

بحث المســيحيون الأوائل في إيجاد أجوبة عن هذه التساؤلات من خلال العهــد القديم، ومن مضامين ما كتبه الرســل، واســتناداً إلــى ما قاله الرب يسوع نفسه. وقد استنتجوا أحياناً استنتاجات شخصية مستندة إلى ما بدا لهم أنه منطقي وعقلاني. ولكنهم في النهاية، كانوا يعودون دائماً إلى ما يشير إليه العهد القديم، وإلى ما كتبه المسيحيون الأولون باعتبار أن هذه الكتابــات موحى بها من الله. وإذا ما ظهــر أي التباس، فيمكنهم معالجته بالرجوع إلى أقوال الرب يســوع، أو إلى أقوال لبولس أو بطرس أو غيرهما من الرسل الآخرين.

بانتهاء القرن الأول للميلاد، كانت جميع كتب العهد الجديد قد أكملت، ولكن هذه الكتب، كان يتم تداولها بين الكنائس على شكل وثائق متفرقة. فيمكــن مثلاً أن تملــك إحدى الكنائس إنجيل متى، بينمــا يكون إنجيل يوحنا في حوزة كنيســة أخرى. أما كنيســة ثالثة فقد يكون عندها أربع رســائل لبولــس أو خمس. ومن الممكن أن نجد في مكان آخر رســالة بطرس الأولى أو ســفر الرؤيا. إلى هذا، فقد وضعت كتابات مســيحية أخرى باتت مشهورة في الأوســاط الشــعبية، الأمر الذي حتم على قادة الكنيســة أن يقرروا أياً من هذه الكتابات هو صادر عن الرســل أنفســهم، أو أي منها يمكن اعتباره له ســلطة، وملهماً بوحي من الله إلى خدامــه المختارين، أو أي الكتب يعتبر من عمل إنســان أصدره، ربما، عن حســن نية؟ وفي بداية العام 180 ميلادي،

ظهر بين المسيحيين شبه إجماع في الرأي حول الكتب التي يمكن اعتبارها قانونية ومعترفاً بها. وفي مدينة بونتوس (Pontus) التي تقع في أقصى الشمال الشرقي من الدولة التركية الحالية، صاغ ماركيون (Marcion) في عام 140 ميلادي قائمة قصيرة بالكتب المقبولة لديه، ولكن نظرية ماركيون هذه جنحت نحو الأفكار الصوفية الخاصة بالغنوسطية، ومال إلى رفض تلك الكتب التي لا تدعم آراءه. على أن كتاباً آخرين، من الرعيل الأول، وافقوا على الكتب المقبولة ماركيون، مضيفين إليها كتباً أخرى، واعتادوا أن يستعملوها في كنائسهم. وفي الغرب، كان إنجيل يوحنا أقل شعبية من الأناجيل الأخرى التي أصدرها باقي البشيرين: متى ومرقس ولوقا، والتي تدعى الأناجيل السينوبتية. وهناك أيضاً، لم تقبل الرسالة إلى العبرانيين إلا ببطء. أما في الشرق، من الناحية الأخرى، فلم يعترف بسفر الرؤيا بادئ ذي بدء.

في مستهل القرن الثالث للميلاد، ألمح ترتوليانوس إلى كل واحد من الأناجيل الأربعة عندما كان يصف حياة المسيح. أما في أواسط القرن الثالث، فقد أصبحت جميع الأسفار التي تؤلف العهد الجديد الذي عندنا اليوم، معترفاً بأصالتها وسلطتها. على أن رسالة أثناسيوس (Athanase)، ناظر كنيسة الإسكندرية، والتي كتبت في سنة 367 م، تعتبر عموماً، أنها الأولى التي تعرف بلائحة أسفار العهد الجديد القانونية، والتي تحتوي على سبعة وعشرين سفراً نستعملها حتى يومنا هذا. وبعد ثلاثين عاماً من ذلك التاريخ، حدد المؤتمر الذي انعقد في قرطاجة، جميع الأسفار القانونية في العهد الجديد، وهي التي أصبحت منذ ذلك الحين الكتب المعتمدة في جميع أنحاء العالم.

ومن الطبيعي، أن قبول هذه الكتب، يعني رفض غيرها من الكتب، تلك الكتب التي ندعوها اليوم «الأسفار الأبوكريفية» (Apocryphe). فإن كتابات الأبوكريفا تتحدث عن خوارق شاذة وغريبة، وواضح أنه تختلف عن الروايات المنضبطة والرزينة التي جاءت في الأناجيل وأعمال الرسل. وعلى الرغم من ذلك، فقد كان لهذه الكتب شعبية واسعة بين أولئك



الذين يستمتعون بالأوهام والتخيلات، ولم يعطوا اعتباراً وتحفظاً للتعليم الذي رافق هذه الكتب والأسفار. وتزعم بعض هذه الكتب أن كاتبيها كانوا الرسل عينهم، ولكن بعد التقصي الدقيق تبين أن هذه الكتب تحتوي على تعليم يتعارض مع المستندات والوثائق التي كان، ولا شك، قد خلفها ورائهم هؤلاء الرسل. فهناك مثلاً إنجيل بطرس المزور، الذي يحتوي على تعاليم وعقائد لا يمكن أن يكون بطرس قد علمها. وهناك ما يدعى «رسالة برنابا»، التي من الممكن أن تكون قد ألفت وجمعت في القرن الثاني للميلاد[65]. أما الكتاب الأكثر شهرة ، فهو ذلك المدعو «ديداكي» (Didache)، أي «تعليم الرسل الثني عشر»، ولربما كتب نحو عام 100 للميلاد. وقد أشار أثناسيوس في القرن الرابع إلى كتابات الأبوكريفا هذه بالقول إنها «الكتب التي لا تحمل أية سلطة، ولكنها عينت من المسيحيين الأولين لتقرأ على أولئك الذين آمنوا حديثاً»[66]. إن القصة المجازية المسماة «راعي هرماس» (Le Berger d' Hermas) انتشرت بشكل واسع في إفريقيا الشمالية، وهناك رسالة أخرى بعنوان رسالة إقلمندوس (L'Epître de Clément)، وعدد من النصوص الأخرى كتلك الروايات التي تدّعي التحدث عن طفولة المسيح والرحلات التي قام بها بطرس وبولس والرسل الآخرون. لقد ادعى بعض الأشخاص أو الكنائس خلال القرون الأربعة الأولى للميلاد، يجب أن يعترف بقانونية هذه الأسفار والرسائل الآنفة الذكر، وحاولوا إنزالها إلى جانب الأناجيل والرسائل التي تكون كتاب العهد الجديد اليوم. ولكن أغلب الكنائس أجمعت على رفضها. هذا لأن قراءة دقيقة فاحصة للأبوكريفا، تظهر، في كل حال، عيوباً في تعاليمها ومبادئها، وهي تفتقر إلى الضبط والتوازن الذين يميزان الكتب المعترف بها من الكنيسة، والمعتمدة منذ ذلك

65- لا ينبغي لنا أن نخلط بين رسالة برنابا وما يسمى «بإنجيل برنابا»؛ إذ لا توجد أي إشارة إلى هذا الأخير في أي وثيقة قبل نهاية القرن الخامس، حين ذكر كعمل هرطقي متأخر وغير مقبول. وهناك كتاب يرجع إلى القرن الثامن عشر يدعي أنه هو ذاك الإنجيل المفقود. لكنه مكتوب بالإيطالية، ويحتوي على اقتباسات من قرآن القرن السابع ومن «الكوميديا المقدسة» لدانتي في القرن الثالث عشر للميلاد. لذا، فلا شك في أن هذه الوثيقة الإيطالية لا ترجع إلى زمن الرسل. وأخيراً نلاحظ أنه لم يتم العثور على أي وثيقة أخرى عن هذا «الإنجيل» المزيف.

66- Epistolae Festales 39; Bainton p. 98

الحين على أنها تشكل كلمة الله الموحى بها وذات السلطة.

لقد صانت الكنائس الأولى كتب العهد الجديد باحترام وإجلال شديدين. وكان قادتها يرجعون مراراً إلى هذه الكتب عند الوعظ والتعليم. كما أن علماء اللاهوت عندهم كانوا يستشهدون بها بشكل ثابت عند تقديم الحقائق العظمى للإيمان وتوضيحها. فترتوليانوس مثلاً، بنى فهمه للثالوث الأقدس، بشكل كامل، على شهادة كتابات هؤلاء الرسل. وقال: «كل الكتاب المقدس يبرهن بوضوح وجود الثالوث الأقدس»[67]. آمن المسيحيون الأوائل بأن هذه الوثائق هي من وحي الله تعالى، كأسفار موسى وكتب الأنبياء والأعمال الشعرية التي في العهد القديم: «تكلم أناس الله القديسون مسوقين من الروح القدس»[68]. وشعروا بالحاجة إلى تفتيش الكتاب المقدس، للوثوق بوعود الله المعلنة على صفحاته ولتطبيق مبادئه في حياتهم اليومية. وعن هذا أيضاً، أجاب ترتوليانوس مرة أخرى بالقول: «نحن ملزمون في إنعاش ذاكرتنا بكتاباتنا المقدسة، وذلك لنستطيع أن نرى ما إذا كان أي من أمورنا الحاضرة يحتاج إلى تحذير أو إعادة نظر. وفي كل الحالات، نحن نغذي إيماننا بهذه الأقوال المقدسة؛ إننا نبعث رجاءنا، ونؤسس ثقتنا، وفي الوقت نفسه نحن نقوي تهذيبنا وانضباطنا بالانتباه الثابت إلى الوصايا»[69].

كان المسيحيون الأوائل ملمين إلماماً تاماً، ليس فقط بالعهد الجديد، بل بالعهد القديم أيضاً. فمعظمهم لا يعرفون القراءة باللغة العبرانية الأصلية. والنسخة الواسعة الانتشار والاستعمال خلال القرون الأربعة الأولى، كانت الترجمة إلى اليونانية، والتي عرفت بالترجمة السبعينية (Septante)، ويرمز إليها أحياناً بالأحرف اللاتينية المختصرة LXX. لقد تولى سبعون أو اثنان وسبعون من جهاز العلماء اليهود في مدينة الإسكندرية العمل الترجمي من العبرانية إلى اليونانية، وذلك في حدود السنة 200 قبل الميلاد. فانفرد كل من هؤلاء المترجمين في حجرة مغلقة، كما تذكر القصة، فجاءت تراجمهم متطابقة بشكل أعجوبي رائع. والجدير ذكره أن ترتوليانوس

67- Adversus Praxean 11
68- (2 بطرس 1: 21)
69- Apologeticus 39



وأغسطينوس لم يعيرا هذه الأسطورة الشعبية اهتماماً كبيراً، ولكنهما مع ذلك كانا يقدران هذه الترجمة.

أبدى المسيحيون الأوائل احتراماً كبيراً للترجمة السبعينية، خصوصاً في ضوء الادعاءات عن أصلها المعجزي. وكانوا يعتمدون على هذه الترجمة في مباحثاتهم ومناظراتهم مع اليهود. إلا أن بعض المسائل العقائدية المستمدة من السبعينية، كانت مع الأسف تستند إلى ترجمة مغلوطة للآيات موضوع الجدل. ولم يتم التخلي عن هذه العقائد إلا بعد أن اكتملت التراجم التي أجريت فيما بعد، مثل ترجمة جيروم اللاتينية المعروفة بـ«الفلغاتة» (Vulgate).

لم يوضع علم اللاهوت للكنيسة الأولى بشكل نظامي في البداية. فمثله مثل لائحة الأسفار القانونية في العهد الجديد، وأنجز قطعة قطعة، تجاوباً مع الاحتياجات الجارية، أو استجابة لما يطرأ من تساؤلات خاصة. لقد وضعت معظم الكتابات اللاهوتية ككتب يوستينوس (Justin) وإيرينايوس (Irénée) وترتوليانوس وأوريجانوس جواباً عن تحديات أوردها النقاد، أو بعض المسيحيين الذين كانت آراؤهم وتعاليمهم غير نقية. ففي الواقع، إن أولئك المقاومين يستحقون شكرنا، لأنه لولا تهجمهم ذاك، لما حمل أصحاب تلك العقول الملهمة المعاصرة على الغوص في تفسير أدق المسائل المرتبطة بالنصوص الكتابية الموحى بها. إن هذه التساؤلات الأساسية نفسها تثار من جيل إلى جيل، والأجوبة التي قدمها لها ترتوليانوس وغيره منذ أكثر من 1600 سنة، لاتزال في أحيان كثيرة بالأهمية عينها التي كانت لها وقتئذ.

ففي إحدى المناسبات، سأل بعض الذين دأبهم الحط من قدر الإيمان: لماذا سمح الله أن يقع الإنسان في الخطيئة؟ لماذا لم يحم الله الإنسان من الإغراء، أو يعطه، على الأقل، القوة لتخطي الإغراء؟ لقد احتجوا قائلين إنه عندما سمح الله لآدم بأن يقع في الخطيئة، لابد من أن الخالق كان يفتقر إما إلى الصلاح وإما إلى المعرفة المسبقة وإما إلى القدرة. وكان قصدهم في

الواقع. أنه لو أن الله موجود حقاً. لوقعت الملامة عليه بالنسبة إلى الشر الموجود في العالم. أو ربما ألحوا بشكل مبطن إلى أن الله غير موجود على الإطلاق.

حمل ترتوليانوس بعنف على هؤلاء النقاد وذلك بأسلوبه المؤثر المعتاد. قال: «والآن. جواباً عن تساؤلاتكم أيها الكلاب الذين طردهم بولس الرسول وأخرجهم خارج الأبواب[70]. أنتم يا من تنبحون على الله. إله الحق. هذه هي الأسئلة التي ما فتئتم تقضمونها باستمرار كما تقضم الكلاب العظام: «فإذا كان الله صالحاً ويعلم الأشياء مسبقاً. وله القدرة على ردع الشر. فلماذا يسمح للناس إذاً. بأن يخدعهم إبليس. ويسقطوا من الطاعة لقوانينه تعالى لكي يموتوا ... ؟ فإذا كان الله صالحاً. فهو لن يرغب في حدوث شيء كهذا. وإذا كان يعلم الأمور مسبقاً. فإنه لن يكون غافلاً عما سيحدث؛ وإذا كان قوياً. فإن باستطاعته الحؤول دون حصوله. وفي كل حالة أو وضع يتوجب أن يتطابق مع هذه الصفات الثلاث للجلال الإلهي».[71]

وبعد أن أثار هذه التساؤلات. شرع ترتوليانوس في الإعداد للإجابة عنها. وقد اتبع في ذلك مثال المسيح. مشيراً إلى أن صلاح الله. ومعرفته الكلية. وقدرته المطلقة. ظاهرة بوضوح. من خلال أعماله في الخلق. وكذلك في إرساله الأنبياء الذين تنبئوا بدقة عما سيحدث في المستقبل. وأخيراً اقترح ترتوليانوس ألا يصار إلى البحث عن الشر في طبيعة الله. بل في طبيعة الإنسان؛ وأضاف قائلاً: «أجد أن الله خلق الإنسان مخلوقاً حراً وأعطاه إمكانية الاختيار. وهذا بالذات. يظهر لي شبه الله وصورته التي أوجدها في الإنسان إذ قد ميزه تعالى بالحرية وبإمكانية الاختيار. ثم يأتي الناموس نفسه الذي أسسه الله ليثبت واقع حال الإنسان هذا. فالناموس لا يعطى إلا لذاك الذي يمتلك القوة لاختيار الطاعة التي يطلبها الناموس ... إذاً. منح الإنسان الحرية الكاملة ليختار بين الصالح والطالح. ليكون بذلك سيد نفسه باستمرار. ملتصقاً بالخير طوعاً. ونابذاً كذلك للشر. لأن حكم الله

70- بالإشارة إلى (فيليبي 3: 2)
71- Adversus Marcionem 2:5 راجع ترجمة: Bettenson ECF pp. 111 – 112



على الإنسان (وهو على كل حال تحت هذا الحكم باستمرار). من الضروري أن يكون عادلاً. وناجماً من اختيار الإنسان الحر. وإلا. فإذا كان الله يدفع الناس عنوة ليكونوا صالحين أو طالحين. فلن تكون هناك عدالة في إدانتهم للشر أو الخير الذي يفعلونه بالاضطرار لا بالاختيار»[72].

قال ترتوليانوس إنه كان بإمكان الله أن يلزم الإنسان بطاعته طاعة دائمة. لكن مثل هذه الطاعة تمثل العبودية أكثر من تمثيلها لحب الإنسان لربه. إن الصلاح الحقيقي هو سجية علينا أن نقبلها طوعاً. وبشكل حر. فالإنسان غير مرغم أبداً على العيش حياة القداسة أو الشر. فبإمكانه. باختياره الشخصي. أن يلتصق بالخير ويقاوم الشر. وبهذا يصبح على شبه الله نفسه. ولكن إذا كان الإنسان حراً في اختياره الخير. فهو حر أيضاً في اختيار الشر: وهذا ما يفعله أحياناً. إن سقوط الإنسان. والشر الذي في العالم. هما النتيجة الحتمية للإرادة الحرة التي منحها له الله. وحتى في هذه الحال. يبقى الأمر أفضل من إلزام الإنسان بطاعة قسرية لله. تظهر قوته تعالى. ولكنها في الوقت عينه. تجعل الإنسان عبداً. إن الله. بمنحه هذه الحرية للبشر. أظهر بذلك بصيرته وحكمته وصلاحه. ولم يتنكر لها.

لم يكن ترتوليانوس صبوراً على أولئك الذين وجدوا لذة في السخرية من حكمة الله. لقد أعلن الله عن ذاته كما هو في الحقيقة: ديان وفاد . قال ترتوليانوس: «أنت تدعوه قاضياً. ومع ذلك فإنك تسخر من قسوة القاضي الذي يتعامل مع كل قضية كما تستوجب أو تستحق تماماً. أنت تطلب إلهاً مطلق الصلاح. وبعد ذلك. عندما يظهر الله وداعته ولطفه من خلال تنازله. ليتلاءم مع قدرات الإنسان الفقيرة المحدودة. تنتقص من قدره تعالى متهماً إياه بالضعف. فلا الإله العظيم يسرك ولا الإله الوديع. لا الإله القاضي ولا الصديق»[73]. ولكن الكثير الانتقاد لا يبدي في الواقع أي رغبة في قبول شيء. فهو يفرح بالسؤال أكثر من فرحه بالحصول على الجواب الشافي. ونادراً ما يأبه لاكتشاف الحقيقة.

72- Adversus Marcionem 2:6
73- Adversus Marcionem 2:27

لم تكن وقائع حياة المسيح وموته وقيامته موضع نقاش أو جدل خلال القرنين الأول والثاني للميلاد، لأنها كانت من المسلمات بالنسبة إلى اليهود والأمم على السواء. فالاهتمام كان بالحري منصباً على طبيعة المسيح نفسه. هل كان المسيح إنساناً عادياً مسحه الله بقوة خاصة؟ أو هل كان ملاكاً وذا جسد شبه بشري؟ هل كان المسيح كائناً خاصاً، خلقه الله ولكنه ميزه عن كل الملائكة والناس؟ لقد تشعبت نظريات عديدة من تلك الأفكار التي تعرف اليوم بالبدعة الغنوسطية. كانت المذاهب الغنوسطية متأثرة جداً بالفكر اليوناني. وكان أنصارها يدعون أن لهم إدراكاً أعمق للحقائق مما لغيرهم من أبناء جيلهم، وذلك بسبب اطلاعهم، ومعرفتهم الواسعة بأسرار الفلسفة، وعلم الأساطير أو علم التنجيم. وقد فسروا الكتاب المقدس، وكل الأشياء الأخرى، في ضوء معرفتهم الخاصة هذه. كانوا يعتبرون المادة بجملتها شراً، ولم يستطيعوا أن يتصوروا ابن الله القدوس آخذاً جسداً بشرياً. فقالوا فيه أنه ينبغي أن يكون إما ملاكاً وإما روحاً.

يقبل ترتوليانوس التحدي: «لم يهبط ملاك من السماء قط ليصلب ويختبر الموت، ثم القيامة من الأموات ... لم يأت الملائكة ليموتوا، لذا لم يأتوا ليولدوا أيضاً. ولكن المسيح أرسل ليموت، لذا كان من الضروري أن يولد حتى يتمكن من أن يموت»[74]. لقد أصبح إنساناً حقيقياً من لحم ودم كما نحن.

وفي مناسبة أخرى، يرد ترتوليانوس على أولئك المعترضين، مبدداً الأفكار التي تقول إن الجسد البشري الفاسد، وبالتالي غير لائق بابن الله. «دعوني الآن أكمل قصدي إذ أبذل قصارى جهدي لإظهار كل ما منح الله الجسد عند خلقه». فعندما خلق الله آدم من طين الأرض، كان بإمكان آدم «أن يفتخر بأن هذا الطين الحقير قد وجد في يديه تعالى ... وقد سرته هذه اللمسة بما فيه

74- De Carne Christi 6

إن المعجزات التي مجدت ولادة المسيح وخدمته الشفائية وقيامته وصعوده تبين بوضوح أنه أعظم من أي واحد من الأنبياء. لذلك، ومنذ الأزمنة الأولى، نال اللقب الفريد والسامي: «ابن الله»، بوصفه الشخص الذي مثل الألوهية وأظهرها في الأرض. هذا، وإن المسيحيين في الماضي، كما في الحاضر، يعرفون أن لهذا التعبير مفهوماً رمزياً وروحياً، وليس جسدياً أو مادياً.



الكفاية»[75]. ولكن الله لم يفكر في آدم وحده عندما خلقه بجسمه هذا، وإنما فكر أيضاً في ابن الله الذي سيحصل أخيراً على الشكل نفسه والهيئة نفسها. «فلنفكر في الله وهو منشغل ومنهمك تماماً في عمل الإنسان، فيده تعمل مع مشاعره، ونشاطه، وتدبره وعلمه المسبق، وحكمته وعنايته، وفوق هذا كله تلك المحبة التي كانت ترسم الخطوط والمعالم في الكائن البشري، لأنه بينما كان الله يقولب كل جزء من الإنسان من الطين، كان المسيح في فكره تعالى، باعتباره ذاك الإنسان الذي سيكون في الزمان الآتي. لأن كلمة الله سيصير طيناً وجسداً ... بعض الأشياء لها الامتياز بأن تكون أشرف وأنبل من أصلها ... فالذهب لم يكن سوى تراب قبل أن نستخرجه من الأرض، ولكن بعد تصفيته يتحول إلى ذهب صلب جامد، ويصبح مادة مختلفة تماماً عما كانت عليه قبلاً، إذ يكون أكثر إشراقاً وروعة، ويكون أكثر قيمة مما كان عليه في مصدره الوضيع الذي انبثق منه»[76]. إن المسيح هو من طينة آدم وجبلته، بيد أن مجده هو أعظم بما لا يقاس.

إذاً، ليس من السخافة في شيء أن يكون المسيح إلهاً وإنساناً في آن، فهو يمتلك روحاً إلهياً وجسداً بشرياً. يضيف ترتوليانوس قائلاً: «فتعلم إذاً مع نيقوديموس كيف أن المولود من الجسد جسد هو، والمولود من الروح هو روح»[77]. فالجسد لا يصبح روحاً ولا الروح جسداً، ولكن يمكن لكليهما أن يوجدا في شخص واحد. كان يسوع يتكون من جسد وروح – من جسد كإنسان، ومن روح بصفته الله. لقد دعاه الملاك «ابن الله»، وذلك بما أنه روح، مستبقياً للجسد اللقب «ابن الإنسان». وعليه فقد أيد الرسول بولس أن للمسيح طبيعتين عندما قال عنه: إنه «الوسيط بين الله والإنسان».» [78].

حار الغنوسطيون بفكرة الثالوث الأقدس، ووجدوا صعوبة في إدراك كيف يمكن للمسيح أن يكون هو الله نفسه، مع أنه يختلف عن الله. لقد علموا أن المسيح هو كائن خاص، ولكن لا يجوز في نظرهم اعتباره مساوياً لله.

75- De Resurrectione Carnis 6

76- De Resurrectione Carnis 6

77- بالإشارة إلى (يوحنا 3: 6)

78- Adversus Praxean 27; بالإشارة إلى (1 تيموثاوس 2: 5)

أعطى ترتوليانوس قدراً كبيراً من التفكير في هذا الأمر. ويبدأ باستعراض ما نعرفه بوضوح عن الله نفسه بالقول: «قبل أن توجد الأشياء كلها، كان الله وحده. كان هو نفسه الكون الخاص به، والمكان الخاص به؛ كان الله كل شيء. كان وحيداً، بمعنى أنه لم يكن هناك شيء خارجاً عنه. ومع ذلك، لم يكن الله وحده، حيث كان معه ما هو جزء منه؛ لقد كان معه ذهنه. فالله هو عاقل والذهن موجود معه منذ الأزل، ومنه انتشر إلى كل الأشياء. وهذا الذهن هو وعيه الشخصي لذاته. واليونانيون يدعونه اللوغوس (Logos)، والذي هو المصطلح الذي نستعمله للخطاب. وهذا ما يترجمه شعبنا حرفياً بالقول: «في البدء كان الخطاب عند الله».»[79]. وهنا بالطبع، يشير ترتوليانوس إلى افتتاحية إنجيل يوحنا حيث أن «الكلمة» (بمعنى الذهن والعقل والخطاب) يمثل المسيح. «في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله وكان الكلمة الله. هذا كان في البدء عند الله. كل شيء به كان وبغيره لم يكن شيء مما كان»[80].

وأردف ترتوليانوس يقول إن هذا الكلام لا يصعب فهمه كما قد يعتقد أحدنا. «ولكي تفهم ذلك بسهولة أكبر، لاحظ أولاً نفسك (حيث أنت «صورة الله وشبهه»[81]) بأنه عندك أنت أيضاً ذهن، وذلك لكونك مخلوقاً عاقلاً ... لاحظ كيف أنه عندما تأخذ في مناقشة نفسك بصمت، وفي تشغيل ذهنك، فإن هذا الأمر نفسه يحصل فيك، حيث أن الكلام يعبر عندك عن الذهن، وذلك في كل لحظة من لحظات التفكير، وفي كل نشاط للوعي والشعور، فكل فكر تفكره يعبر عنه بحديث وكلام، وكل لحظة من لحظات الوعي تعبر عن نفسها من خلال التفكير ... وعليه، فالحديث الذي يدور في داخلك يميز بمعنى من المعاني، عن ذاتك»[82].

يفكر الله بالطريقة نفسها التي يفكر فيها الإنسان، حيث أن الإنسان صنع على صورة الله ولكن مع الفارق التالي: أفكار الله لها القدرة اللامتناهية

79- Adversus Praxean 5
80- (يوحنا 1: 1 - 3)
81- بالإشارة إلى (1 كورنثوس 11: 7)
82- Adversus Praxean 5



لتصبح حقيقة. بإمكان الإنسان أن يفكر في أمور عظيمة ولكن ليس له القدرة على أن يحقق كل ما يتصوره. الله بالمقابل، لا يحتاج إلا إلى أن يفكر في شيء، فيقدر على أن يخلق هذا الشيء كاملاً وذلك فوراً ومن العدم. والكلمة الذي كان دائماً في فكر الله ولد أو أنجب في اللحظة التي فيها أنجز الله مضمون فكره. «هذا إذاً هو الوقت الذي فيه يظهر الكلمة بمظهره ولباسه الخارجيين ... كانت هذه الولادة الحقيقية للكلمة عندما انبثق من الله»[83]. فقد لاحظ تلاميذ المسيح أن سيدهم كان الكلمة الذي خرج من الله. «والكلمة صار جسداً وحل بيننا ورأينا مجده كما لوحيد من الآب مملوءاً نعمة وحقاً»[84].

قال ترتوليانوس إن «الكلمة (المسيح) جعل الله أباً له حيث أصبح انبثاقه منه، الابن الأول، وهو كذلك لأنه منبثق قبل كل الأشياء؛ كذلك هو الابن الوحيد للآب بصفته منبثقاً بشكل فريد من أحشاء قلبه تعالى»[85]. والكتاب المقدس يبرهن لنا هذه الحقيقة حيث أن المسيح نفسه قال إنه جاء من عند الله، من عقله الداخلي. وقد تحدث المسيح عن المجد الذي كان له عند الآب قبل كون العالم [86]. كذلك تحدث عن محبة الآب له قبل تأسيس العالم[87]، وعن الآب الذي أرسله إلى العالم المخلوق[88]. ولكن حتى عندما كان المسيح على هذه الأرض، كان «في الآب». وهو الذي صرح بالقول: «أنا والآب واحد». وأيضا: «لست وحدي بل أنا والآب الذي أرسلني»[89]. لقد جاء المسيح من الآب، وكان لايزال واحداً مع الآب. وبعد قيامته عاد إلى الآب. كان دائماً وبشكل ثابت، كلمة الله، والإعلان الإلهي الظاهر للخالق الإلهي ذاته.

بهذا الأسلوب حاول ترتوليانوس أن يجيب عن أسئلة الغنوسطيين. ولكن، كانت هناك جماعات أخرى على نقيض الغنوسطيين، تثبت أن

83- Adversus Praxean 7
84- Adversus Praxean 7
85- (يوحنا 1: 14)
86- (يوحنا 17: 5)
87- (يوحنا 17: 24)
88- (يوحنا 17: 18)
89- (يوحنا 10: 30 و38 ؛ 8: 16)

المسيح والآب كانا متطابقين على نحو مطلق. وقد وجد ترتوليانوس جواباً لهؤلاء أيضاً. فيسوع نفسه قال: «أبي أعظم مني»[90]. وذلك، كما لاحظ ترتوليانوس، لأن الآب هو الجوهر الكامل (للألوهية) بينما الابن انبثق منه وهو جزء من كل ... جاء الابن من الآب، ولكنه لم يكن منفصلاً عنه. لأن الله ينتج الكلمة ... كما الجذر ينتج النبتة، والنبع النهر، والشمس الشعاع، حيث أن هذه المظاهر كانت «امتداداً» للجوهر الذي انبثقت منه. أنا لا أتردد في أن أدعو النبتة «بنت الجذر»، وكذلك النهر «ابن الينبوع»، والشعاع «ابن الشمس». حيث أن كل مصدر أصلي هو والد أو والدة، وما ينتجه هو ابنه أو ابنته. وهذه الحقيقة تصح أكثر بكثير على كلمة الله الذي حصل على اسم «ابن» كلقبه المناسب. ولكن النبتة ليست منفصلة عن الجذر، والنهر ليس منفصلاً عن الينبوع، والشعاع غير منفصل عن الشمس، وهكذا كلمة الله ليس منفصلاً عن الله. وعليه، واستناداً إلى هذه التناظرات، أعترف بأنني أتحدث عن اثنين: الله وكلمته، الآب وابنه. إن الجذر ونبتته هما اثنان، ولكنهما متحدان. النبع والنهر اثنان، ولكنهما موحدان؛ الشمس وشعاعها اثنان، ولكنهما متحدان. فإن أي شيء ينبثق من أي شيء آخر يحتاج إلى أن يكون شيئاً ثانياً، ولكنه ليس بالضروري منفصلاً عنه. وعندما يكون هناك واحد ثانٍ، فإنهما اثنان، وعندما يكون هناك ثالث يكونون ثلاثة. الروح القدس هو الثالث من الله والابن، كما الثمرة من النبتة فوق الأرض هي الثالثة من النبتة، والقناة من النهر هي الثالثة من النبع، والنقطة المضاءة بالشعاع هي الثالثة من الشمس. ولكن أحداً من هذه غير منفصل عن الأصل الذي تستمد منه صفاتها الخاصة. وعليه، فإن الثالوث ينبثق من الآب بخطوات مستمرة ومتصلة بعضها ببعضها الآخر. وهذا لا يطعن، بأي حال من الأحوال، في وحدته تعالى، ولكنه يحافظ على حقيقة كونه يعلن ذاته بطرق مختلفة»[91].

وبهذا، ختم ترتوليانوس حديثه قائلاً إن الابن والروح القدس انبثقا من الله نفسه، كانا موجودين مع الآب منذ الأزل، ولكن، في الوقت المعين أرسلا

90- (يوحنا 14: 28)
91- dversus Praxean 7



كإعلان عن الله نفسه. الكلمة هو الله، ولكن الله هو أكثر من مجرد كلمته. الروح القدس هو الله، ولكن الله أكثر من مجرد روحه. فالله يشتمل على كل هؤلاء: هو نفسه، كلمته وروحه. إن كلمة هو إعلانه عن نفسه تعالى. وروح الله هو إعلانه عن نفسه أيضاً، ولكنه يبقى هو الله نفسه، الله الواحد كما كان دائماً وكما سيبقى إلى الأبد.

ولكن ترتوليانوس اعترض على بعض الناس الذين يدعون أنه لم يكن هناك فرق أو تمييز بين الآب والابن، ويذهبون في ذلك إلى حد الجزم أن الله الآب مات على الصليب وحمل خطية الإنسان. أجابهم ترتوليانوس: «إن هذا القول هو تجديف على الله، فلنتوقف عنه، ولنكتف بالقول إن المسيح ابن الله هو الذي مات. لقد مات، لأن هذا هو ما يقوله الكتاب المقدس ... وعليه، وبما أن للمسيح طبيعتين، طبيعة إلهية وطبيعة بشرية، وبما أنه متفق عليه أن الله لا يموت، إذاً الطبيعة البشرية هي وحدها المائتة. فمن الواضح أنه حين قال الرسول، إن «المسيح مات» فهو يتحدث عن الجسد والإنسان وابن الإنسان، وليس عن الروح والكلمة وابن الله»[92].

للمسيح طبيعتان، أضاف ترتوليانوس، «متحدان في شخص واحد، يسوع، الذي هو الله والإنسان ... لقد ظل كل جوهر محتفظاً بخصائصه، بحيث تمم الروح في المسيح نشاطاته الخاصة – القوى والمعجزات والأمارات – بينما جسده اختبر ما يختص بالجسد – الجوع عندما التقى المسيح بإبليس، والعطش في مقابلته المرأة السامرية، والبكاء عند موت اليعازر، والاكتئاب حتى الموت، وأخيراً موت الجسد»[93]. لقد جرب المسيح بجسده وفكره، الإغراءات نفسها التي تصيبنا[94]، فلم يكن محصناً ضد الإغراءات، كما لم يكن متأكداً من النصر الفوري عليها. ولكنه كان يستمد القوة من الروح الإلهي الموجود فيه، فلم يستسلم قط. تألم ومات بجسده البشري كابن الإنسان، ومع ذلك فقد بقي روحه الإلهي حياً. ترك روحه الجسد في

92- Adversus Praxean 29
93- Adversus Praxean 27
94- (عبرانيين 4: 15)

لحظة الوفاة[95]. ولكنه عاد إليه مرة ثانية عند قيامته من الأموات.

وهنا نرى الفرق بين الابن والآب. الآب لا يتغير وليس له جسد مادي. فهو لا يموت ولا يقوم من الأموات. الابن هو الذي عانى وتألم ومات بالجسد، كما يحدث للإنسان فقط. لقد صرخ يسوع: «إلهي إلهي لماذا تركتني»[96]. قال ترتوليانوس: «لقد كانت هذه الصرخة صرخة الجسد والنفس؛ كانت صرخة الإنسان، لا صرخة الله. وهذا ما عناه الرسول بقوله إن الآب لم يشفق على ابنه[97]. وقبل هذا، صرح أشعياء النبي قائلاً: «والرب وضع عليه إثم جميعنا»[98]. كان الله الآب هو الذي بذل الله الابن من أجلنا. وكان الله الابن وحده من انبثق من الآب، وتجسد، وحمل أوزار الخطية. «الآب يختلف ويتميز عن (إنسانية) الابن، مع أنه لا يختلف عنه بألوهيته». وقد قدم ترتوليانوس الإيضاح هنا بالقول: «إذا كان هناك جدول مياه ملوث ... فهذا لا يؤثر في مصدره أو منبعه، مع أنه ليس هناك انفصال بين المصدر والجدول»[99]. لقد أميت الابن، ولكن ليس للآب جسد بشري، لذا لا يمكن أن يموت. وهنا يكمن الفرق بين أقانيم اللاهوت.

لقد كانت مثل هذه المناظرات اللاهوتية ضرورية لحفظ الإيمان ونقله إلى الأجيال الصاعدة من دون فساد أو خطأ. ولكن لا يفترض بالجميع أن يتبعوا مثل هذه التعقيدات من الإثباتات المنطقية والتفنيد. ولحسن الحظ نقول إن التعاليم الأساسية للمسيحية كانت واضحة وعملية بشكل ممتاز. وكان أبسط المؤمنين يتمكن من قبول كلمات يسوع بمعناها الظاهري – لإطاعتها والإيمان بها، حتى وإن لم يفهمها بالكامل. فالإنسان يستطيع أن يخدم المسيح من دون أن يقرأ حجج ترتوليانوس المعقدة، أو يفهمها تماماً.

منذ البدء راح المبشرون والوعاظ ينادون بالإنجيل في مناطق نائية لم تصلها بعد هذه الرسالة، وكانوا من ثم يعلمون المهتدين، كيفية الحياة

95- (متى 27: 50)
96- (متى 27: 46)
97- بالإشارة إلى (رومية 8: 23)
98- Adversus Praxean 30؛ بالإشارة إلى (أشعياء 35: 6)
99- Adversus Praxean 29



كمسيحيين. عرف معظم أولئك الرحالة رسالة المسيح بشكل جيد، وفسروها بوضوح ودقة، ولكن بعضهم، مثل أبلوس في أفسس، وغيره، كانوا هم أنفسهم في حاجة إلى تعلم طريق الرب بأكثر تدقيق[100]. لقد خلفوا وراءهم مجموعات صغيرة من المؤمنين هنا وهناك ليناضلوا بأنفسهم، من دون أن يكون لديهم ولو جزء يسير من أسفار الكتاب المقدس. أنتجت بعض تلك المجموعات الجديدة أفكاراً وتعاليم غير صحيحة تماماً؛ وبعضهم الآخر أظهروا على نحو واضح، أن تعليمهم يختلف عن التعليم الأصيل. والمشكلة التي جابهت قادة الكنائس الموجودة هناك، هي كيف يمكنهم أن يميزوا بين المجموعات التي يجوز اعتبارها ككنائس حقيقية للمسيح، والمجموعات الأخرى المرفوضة. فاقترح ترتوليانوس مقياسين يمكن الحكم من خلالهما. أولاً، يسأل في الكنيسة إن كانت قد تأسست على يدي واحد من الرسل الإثني عشر، أو أحد الخدام الموافق عليهم، والذين تم تعيينهم من أحد الرسل. ثانياً، هل الكنيسة تعلم المبادئ نفسها التي علمها المسيح ورسله؟ فإذا ما طابقت المجموعة هذين المقياسين يمكن اعتبارها رسولية، ويجري قبول أعضائها كإخوة في المسيح.

وبعد ذلك يضع ترتوليانوس المبدأ العظيم: اتحاد الكنائس الناتج من أصلها الواحد. فيعيدنا إلى التلاميذ الأحد عشر الذين اختارهم يسوع: «لقد شهدوا أولاً بالإيمان بيسوع المسيح في كل أنحاء اليهودية وأسسوا كنائس هناك، ومن ثم ذهبوا إلى العالم وهم ينادون الأمم بالعقيدة نفسها المختصة بالإيمان نفسه. وبالطريقة نفسها أسسوا كنائس في كل مدينة، ومنها اقتبست كنائس أخرى برعم الإيمان وبذور العقيدة ... ولاتزال تقتبسها في كل يوم ... وهكذا فالكنائس، مهما كثرت وعظمت، هي شبيهة بتلك الكنيسة القديمة الواحدة التي أسسها الرسل، والتي انبثقت منها ... فكل الكنائس واحدة، وهي تبرهن وحدتها بسلامها المشترك. وباللقب «إخوة»، وبرباط الضيافة المتبادلة»[101].

100- (أعمال 18: 24 - 26)
101- De Praesceiptione Haereticorum 20

تحدى ترتوليانوس كنائس جديدة، كانت قد عرضت مبادئ وتعاليم غريبة، لتثبت نسبها وأصالتها. فقال: «فليعرضوا أصول كنائسهم، وليكشفوا قوائم بأسماء نظارهم المتعاقبين بشكل متواصل منذ البداية، بحيث يستطيع أول نظارهم أن يؤكد أن أحد الرسل أو أحد تابعي هؤلاء الرسل هو سلف له في الخدمة، ومصدر لسلطته»[102].

إلا أن ترتوليانوس أصر كذلك على فحص التعليم في الكنائس الجديدة، ليرى ما إذا كان يتناسب مع تعليم الكنائس التي أسسها الرسل أنفسهم. «والآن يجب الموافقة على مادة الوعظ في هذه الكنائس، أي إعلان المسيح لها، على أن يتم ذلك في نظري في ضوء شهادة الكنائس الأولى التي أسسها الرسل إذ كرزوا لها شخصياً، وبواسطة رسائلهم فيما بعد ... نحن في شركة مع الكنائس الرسولية إذ لا اختلاف في العقيدة. وهذا ما يضمن أننا نعلم الحق»[103].

وقد زادت الحال تعقيداً بسبب وجود بعض المعلمين المبتدعين الذين قدموا مستندات تدعم نظرتهم الخاصة التي ادعوا أنها من مخطوطات الرسل. فرد ترتوليانوس على هذا بالقول: «حتى وإن استنبطت هذه البدع أنساباً كهذه، فلن يفيدهم ذلك في شيء، حيث عند مقارنة تعاليمهم مع تعاليم الرسل، تظهر باختلافها وبعدم تشابهها أنها لم تصدر لا عن الرسل، ولا عن أي شخص كان له علاقة برسول ... يجب أن تخضع لهذا الفحص جميع الكنائس اللاحقة التي تؤسس يومياً، ومع أنهم قد لا يستطيعون أن يذكروا رسولاً أو شخصاً له علاقة برسول، كمؤسس لهم، إلا أنهم يستطيعون، إن اتحدوا حول الإيمان الواحد، أن يحسبوا أيضاً رسوليين، وذلك بسبب التجانس في التعليم»[104].

وحين واجه ترتوليانوس التكاثر المستمر للكنائس الجديدة، شعر بأنه من المرغوب فيه عند كل كنيسة أن تسجل أصالتها ونسبها خطوة خطوة، حتى

102- De Praesceiptione Haereticorum 32
103- De Praesceiptione Haereticorum 32
104- De Praesceiptione Haereticorum 32



تعود بهذه الأصالة أو النسب إلى أحد الرسل. ولكن المحك الأهم للتعليم الصحيح كان بوضوح، إمكانية إثبات أن عقيدتها تتناسب مع عقيدة الرسل، كما هي مدونة في الكتاب المقدس، وكما كانت تعلم الكنائس القديمة. مع ذلك، لم يعش ترتوليانوس ليرى حشد القوى المتناحرة، للمعركة الكبيرة بين «العقيدة» و«النسب والأصالة» التي وقعت بعد قرن واحد من وفاته.